

٤ - عصر الخلافة

لم يصل الشعر الأندلسي إلى أوجهه الكامل وسمته الجمالي إلا في القرن العاشر الميلادي الذي يقترن بقيام الخلافة الأموية الأندلسية عام ٣١٧هـ/ ٩٢٩م فلقد انتصرت السياسة الأموية الحكيمة على الأزمات كلها: فلم يوفق القديس يولوجيوس إلى استشارة أهل الدين من المستعربين، ولم يلهب حماسهم النسر الأندلسي الذي اعتصم بؤكته في بيشتر (يشير إلى عمر بن حفصون)، واختلطت بالتربة الأندلسية القديمة العناصر الجديدة التي حملها العرب معهم من فارس وبيزنطة، وقد شجع عملية المزج هذه، وعمل على تقويتها، عامل على أكبر جانب من الأهمية: ذلك هو البيت الأموي الذي وقف محايداً وصمد للتيارات المتضاربة كلها. نعم، إنه كان عربياً صرفاً - ومن ثم لم يكن إسبانياً - ولكن خصومته العنيفة مع العباسيين المشاركة خففت من عصبية العربية، وجعلته لا يميل إلى العرب وينفض يده من عونهم. ولقد كانت قرطبة بلداً نصف عربي، يتحدث أهله العربية وعجمية أهل الأندلس، يختلط فيه رنين الأجراس بأذان المؤذنين، وكان بعض شعراء الأندلس يفيثون إلى ظلال البيع المستعربية الصغيرة ليصيوا شيئاً من النيذ، فجددوا بذلك ما عرفه شعراء البدو من شرب النيذ في ديور الصحراء أو خيام الرهبان المتأبددين في القفر. وتجلّى اختلاط الأجناس بعضها ببعض، وتجاور الديانات بعضها لبعض، عن جو سمح جميل إنساني شفاف: هو نفس الجو الحضاري الذي نعرفه في بغداد كما تُصورها قصص «ألف ليلة»، خالصاً من كل ما يرتبط بالشرق في أذهاننا أبداً من جلافة يشوبها الغموض. هنا قبس الشرق طابع الغرب من نسائم جبل قرطبة الرقيقة الريفية.

كانت قرطبة تتقبل كل شيء وتمثله وتحوِّله إلى شيء آخر بعد تصفيته: فلقد كانت الرايات وملابس الحداد مثلاً سوداء في بغداد، فأصبحت بيضاء في الأندلس، وفي تلك الأيام كانت الممالك النصرانية في الشمال تعيش في جو قروى فقير، أما ملوك إسبانيا الحقيقيون فكانوا سادة قرطبة: عبد الرحمن، والحكم، والمنصور^(١). وبين أيدينا مصاديق ذلك لائحة للعيان: فهذه أقواس المسجد الجامع قائمة إلى اليوم سابحة في «شبه ظل» يروع النفس، وتلك خرائب مدينة الزهراء الرائعة تحولت اليوم إلى ملاعب لمصارعة الثيران، وتضم الكنائس الجامعة الإسبانية والمتاحف اليوم قطعاً من بديع النسيج وصناديق العاج تتحدث كلها عن تلك الأمجاد التي لا يخبو ضياؤها، ويتحدث عنها كذلك - بأجلى بيان - الشعر الكثير الذي أثر عن أزمانها.

ولقد عرف الأندلس على أيام الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠هـ / ٩١٢ - ٩٦١م) ودواوين المتنبي وغيره من أئمة القريض العربي القديم المحدث، وعلى بلاط قصر ذلك الخليفة العظيم - عبد الرحمن الناصر - وابنه الحكم المستنصر العالم الجماع للكتب (٣٥٠ - ٣٦٦هـ / ٩٦١ - ٩٧٦م)، والوزير الخطير العظيم السلطان المنصور بن أبي عامر (توفي عام ٣٩٣هـ / ١٠٠٢م) وفد سفراء الثقافة المشرقية: من أبي على القالى (دخل الأندلس عام ٣٣٠هـ / ٩٤١م)، إلى صاعد البغدادي (وفد عام ٣٨٠هـ / ٩٩٠م). وعلى قصورهم الزاهرة وفدت كذلك سفارات نصرانية من الغرب، ومن بيزنطة البعيدة حاملة معها أطافاً بديعة من الفسيفساء وكتب ديوسقوريد في الطب، والتي وضعت في الأندلس بذور نهضة العلوم الطبيعية التي بلغت أوجها في القرن الثالث عشر الميلادي.

كان حشد حافل من الثقافة الجديدة يعتمل ويختمر في قرطبة، وفي ظلال جيوش الخلفاء المظفرة وأسننها المشرعة التي لا تُغلب كان الكتاب ينشون، والعلماء يحاضرون إلى جوار عمدة المسجد الجامع، وانصرف الأغنياء إلى التنافس

(١) يشير المؤلف هنا بالمفرد إلى الجمع، فهو يريد بعبد الرحمن عباد الرحمن الثلاثة الداخل والأوسط والناصر، وبالحكم إلى الحكيمين الربضى والمستنصر، والمنصور هو محمد بن أبي عامر.

فى جمع الكتب، وعتت القيان، ونظّم الشعراء، وعكف العلماء على تصنيف
طلائع مجموعات النظم والنثر.

وإذا نحن استثنينا من استأخر من شعراء عصر الإمارة وعاش ردحاً من عصر
الخلافة، ونفراً من الوشّاحين، وجدنا فى طليعة شعراء هذا العصر ابن عبد ربه
(توفى عام ٣٢٨هـ / ٩٣٩م) صاحب «العقد الفريد» الذى بهر القلوب بمدائحه،
وابن هانئ الإلبيرى (توفى عام ٣٦٢هـ / ٩٧٢م) الذى لم يلبث أن غادر
الأندلس ولحق بملوك المغرب، والذى شبّه المعرى شعره «برحى تطحن قروناً»
(ابن خلكان - ترجمة ابن هانئ)، والزبيدى (التوفى عام ٣٧٩هـ / ٩٨٩م)،
وابن أبى زمنين (توفى عام ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م)، وأولئك الشعراء الذين ذكرهم
ابن حزم فى «رسالته»، والمصحفى (توفى عام ٣٧٢هـ / ٩٨٢م) الذى جرده
المنصور من طارفه وتليده، وابن فرج الجيانى (توفى عام ٣٦٦هـ / ٩٧٦م)
صاحب «كتاب الحدائق» الذى ضامى به «كتاب الزهرة» لداود الأصبهاني،
والشاعر الرقيق «الأمير الطليق» (توفى عام ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م) الذى أودع
المحبس لقتله أباه، وكان يغار منه، وابن شُخيص الرمادى (توفى عام ٤١٣هـ /
١٠٢٢م)، وابن إدريس الجزيرى (توفى عام ٣٩٤هـ / ١٠٠٣م)، وابن دراج
القسطلى (توفى عام ٤٢١هـ / ١٠٣٠م) وكان شاعراً معقداً عسير الفهم مثل
جُنجره (Góngora) الشاعر الإسبانى، وابن بُرد (توفى عام ٤٤٤هـ /
١٠٥٣م)، وغيرهم كثيرين. ولا بد أن نذكر من بين الكثيرين الذين ظهوروا بعد
ذلك بقليل: أولئك الشعراء الذين عاشوا فى أيام عبد الرحمن الخامس المستظهر
بالله - الذى لم يطل حكمه (توفى عام ٤١٥هـ / ١٠٢٤م) - فقد أحاطت به
هالة من أهل الأدب، وكان هو نفسه أديباً.

وقد نظم الأندلسيون فى كل فن وباب: من الزهديات والتاريخيات إلى
النوريات التى أكثر الناس منها على عصر المنصور.

